ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك:

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ ﴾

ومادة «استغاث» تفيد طلب الغوث، مثل «استسقى» أى طلب السقيا، و «استفهم» أى طلب الفهم، و «الألف» و «السين» و «التاء» توجد للطلب. و «استغاث» أى طلب الغوث من قوى عنه قادر على الإغاثة، وأصلها من الغيث وهو المطر، فحين تجدب الأرض لعدم نزول المطر ولا يجدون المياه يقال: طلبنا الغوث، ولأن الماء هو أصل الحياة؛ لذلك استعمل فى كل ما فيه غوث، وهو إبقاء الحياة، وفى حالة الحرب قد يفنى فيها المقاتلون؛ لذلك يطلبون الغوث من الله عز وجل ﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾.

و «تستغيثون ربكم» بضمير الجمع، كأنهم كلهم جميعاً يستغيثون فى وقت واحد، وقد استغاث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اصطف القوم وقال أبو جهل: اللهم أولانا بالحق فانصره، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه واستقبل القبلة وقال: «اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم ائتنى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض». (١).

ويدل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه كان يستغيث بالخالق الذى وعد بالنصر، ورد القوم خلفه: آمين، لأن أى إنسان يؤمن على دعاء يقوله إمام أو قائد فهو بتأمينه هذا كأنما يدعو مثلما يقول الإمام أو القائد. فمن يقول: «آمين» يكون أحد الداعين بنفس الدعاء. والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ

(١) رواه مسلم عن عمر بن الخطاب.

قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

(سورة يونس)

وهذا ما جاء فى القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعدها:

﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾

(من الآية ٨٩ سورة يونس)

مع العلم بأن سيدنا موسى عليه السلام هو الذى دعا، وقوله سبحانه من بعد ذلك « أجيبت دعوتكما » دليل على أن موسى دعا وهارون قال: « آمين » فصار هارون داعياً أيضاً مثل أخيه موسى.

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٩ سورة الأنفال)

« فاستجاب لكم » الألف والسين والتاء - كما علمنا - تأتى للطلب، وقول الحق سبحانه وتعالى « فاستجاب » يعنى أنه طلب من جنود الحق فى الأرض أن يكونوا مع محمد وأصحابه؛ لأن الله سبحانه وتعالى، خلق الكون، وخلق فيه الأسباب. نراها ظاهرة، ووراءها قوى خفية من الملائكة. والملائكة هم خلق الله الخفى الذى لانراه ولانبصره، إلا أن الله أخبرنا أن له ملائكة.

فالملائكة ليست من المخلوقات المشاهدة لنا، وإنما إيماننا بالله، وتصديقنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى البلاغ عن الله تعالى جعلنا نعرف أنه سبحانه وتعالى قد خلق الملائكة، وأخبرنا أيضاً أنه خلق الجن وصدقنا ذلك، إذن فحجة إيماننا بوجود الملائكة والجن هو إخبار الرسول الصادق بالبلاغ عن الله تعالى ومن يقف عقله أمام هذه المسألة ويتساءل: كيف يوجد شيء ولا يرى، نقول له: هذه أخبار من الله.

وهناك من أنكر وجود الملائكة والجن وقال : إنها القوى الميكانيكية فى الأسباب ، ولم يلتفتوا إلى أن الحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن أمر غيبى ، فسبحانه يترك فى مشهديات وجوده وكونه ما يقرب هذا الأمر الغيبى إلى الذهن ، فيجعلك لا تعرف وجود أشياء تشعر بآثارها ، ثم بمرور الزمن تدرك وجودها ، وهذه الأشياء لم تُخلق حين اكتشفتها ، وإنما هى كانت موجودة لكنك لم تتعرف عليها ، وهناك فارق بين وجود الشيء وإدراك وجود الشيء . ومثال ذلك كان اكتشاف الميكروب فى القرن السابع عشر وهو موجود من قبل أن يكتشف ، وكان يدخل فى أجسام الناس ، وينفذ من الجلد ، وحين اكتشفوه ، دلّ ذلك على أنه كان موجوداً لكننا لم نكن نملك أدوات إدراكه . إذن فإن حُدثت بأن لله خلقاً موجوداً وإن لم تكن تدركه ، فخذ مما أدركته بعد أن لم تكن تدركه دليل تصديق لما لا تدركه .

وأخبرنا الحق تبارك وتعالى بوجود الملائكة ، وكل شيء له ملائكة يدبرونه ، وهم : « المدبرات أمرا » ، والملائكة الحفظة ، وسبحانه القائل :

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الرعد)

وسبحانه أيضاً القائل :

﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة ق)

وهؤلاء الملائكة هم الموكلون بمصالح الإنسان فى الأرض ، المطر مثلاً له ملكه ، الزرع مثلاً له ملكه ، وكل شيء له ملك . وهو سبب خفى غير منظور يحرك الشيء . ﴿ فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة ﴾ .

والإمداد هو الزيادة التى تجيء للجيش ، لأن الجيش إذا ووجه بمعارك لا يستطيع أن يقوم بها العدد الموجود من الرجال أو السلاح ، حينئذ يطلب قائد الجيش إرسال

المدد من الرجال والعتاد.

﴿ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾

ونعلم أنه ساعة أن أمر ربنا الملائكة أن تسجد لآدم، لم يكن الأمر لكل جنس الملائكة، بل صدر الأمر إلى الملائكة الموكلين بمصالح الأرض. أما الملائكة غير الموكلين بهذا، فلم يدخلوا في هذه المسألة، ولذلك قلنا إن الحق سبحانه وتعالى حينما عنف إبليس، قال له:

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

والمقصود بـ « العالين » هم الملائكة الذين لم يشملهم أمر السجود.

والحق تبارك وتعالى هنا في هذه الآية يبين أنه سبحانه وتعالى قد أمد المسلمين المحاربين في غزوة بدر بـ: ﴿ بألف من الملائكة مردفين ﴾

والردْفُ هو ما يتبعك، ولذلك يقال: « فلان ركب مطيته وأرْدَفَ فلاناً »، أي جعله وراءه. والمُردِف هو من يكون في الأمام، والمردَف هو من يكون خلفه. والآية توضح لنا أن الملائكة كانت أمام المسلمين؛ لأن جيش المسلمين كان قليل العدد، وجيش الكفار كان كثير العدد، وجاءت الملائكة لتكثير عدد جيش المسلمين، فإذا كان العدد مكوناً من ألف مقاتل، فقد أرسل الحق ملائكة بنفس العدد ويزيد بذلك جيش المؤمنين بعدد المؤمنين. وكان يكفي أن يرسل الحق ملكاً واحداً، كما تحكي الروايات عما حدث لقوم لوط، فقد روى أن جبريل عليه السلام، أدخل جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوط، وصعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الحمار، ونباح الكلاب، وصياح الديوك، ولم تنكفىء لهم جرّة، ولم ينسكب لهم إناء، ثم قلبها دفعة واحدة وضربها على الأرض.

وصيحة واحدة زلزلت قوم ثمود. لماذا إذن أرسل الحق تبارك وتعالى هنا ألفاً من

الملائكة ؟ . حدث ذلك لتكثير العدد أمام العدو وليفيد فى أمرين اثنين :

الأمر الأول : أن تأخذ العدو رهبة ، والأمر الثانى : أن يأخذ المؤمنون قوة لكن أكان للملائكة فى هذه المسألة عمل ؟ أو لا عمل لهم ؟ هنا حدث خلاف .

ونجد الحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

أى أن الملائكة هى بشرى لكم ، وأنتم الذين تقاتلون أعداءكم ، وسبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

قال الحق سبحانه وتعالى ذلك للمؤمنين وهم يدخلون أول معركة حربية ، ويواجهون أول لقاء مسلح بينهم وبين الكافرين ، لأنهم إن علموا أن الملائكة ستقاتل وتدخل ، فقد يتكاسلون عن القتال ويدخلون إلى الحرب بقلوب غير مستعدة ، وبغير حمية ، فأوضح ربنا : أنا جعلت تدخل الملائكة بشرى لكم ، و « لتطمئن به قلوبكم » ، أى أن عدد الملائكة يقابل عدد جيش الكفار ، والزيادة فى العدد هى أنتم يا من خرجتم للقتال . واعلموا أن الملائكة هى لطمأنة القلوب . لكن الحق يريد أن يعذبهم بأيديكم أنتم ؛ لأن الله يريد أن يربى المهابة لهذه العصبة بالذات ، بحيث يحسب لها الناس ألف حساب .

واختلفت الروايات فى دور الملائكة فى غزوة بدر ، فنجد أبا جهل يقول لابن مسعود : ما هذه الأصوات التى أسمعها فى المعركة ؟ فقد كانت هناك أصوات تُفزع

الكفار فى غزوة بدر - ويرد ابن مسعود على أبى جهل : إنها أصوات الملائكة . قال : إذن بالملائكة تغلبون لا أنتم . .

فإياكم أن تفتنوا حتى بالملائكة ؛ لأن النصر لا منكم ولا من الملائكة ، ولكن النصر من عندي أنا ؛ لأن الذى تحب أن ينصرك ، لابد أن تكون واثقاً أنه قادر على نصرتك ، والبشر مع البشر يظنون الانتصار من قبل الحرب ، ومن الجائز أن يغلب الطرف الآخر ، لكن النصر الحقيقى من الذى لا يُغْلَب وهو الله سبحانه وتعالى : ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾

وأنت حين تستنصر أحداً لينصرك على عدوك فهذا الذى تستنصر به إن كان من جنسك يصح أن يَغْلِب معك ويصح أن تنغلب أنت وهو ، لكنك تدخل الحرب مظنة أنك تغلبَ مع مَن ينصرك وقد يحدث لكما معاً الهزيمة أمَّا الحقُّ سبحانه وتعالى فهو وحده الذى لا يُغَالَب ولا يُغْلَب . ﴿ وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾ .

وهو سبحانه وتعالى الناصر ، وهكذا يكون المؤمن الذى يقاتل بحمية الإيمان واثقاً من النصر ، لكن إياكم أن تظنوا أن النصر من الله لا يصدر عن حكمة ، إن وراء نصر الله للمؤمنين حكمةً ، فإن تهاونتم فى أى أمر يُسلب منكم النصر ؛ لأن الله لا يغير سننه مع خلقه ، وقد رأينا ما حدث فى غزوة أحد حين تخاذلوا ولم ينفذوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم ينتصروا ؛ لأن الحكمة اقتضت ألا ينتصروا ، ولو نصرهم الله لاستهانوا بعد ذلك بأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقال بعض منهم : خالفناه وانتصرنا ، وهكذا نجد أن طاعة الله والرسول والأخذ بالأسباب أمر هام ، فحين جاء الأمر من رسول الله فى غزوة أحد بما معناه : يا رماة لا تتركوا أماكنكم ، ولو رأيتمونا نفر إلى المدينة ، فلا شأن لكم بنا ، وعلى كل منكم أن يأخذ دوره ومهمته ، فإذا رأى أخا له فى دوره قد انهزم فليس له به شأن ، وعلى كل مقاتل أن ينفذ ما عليه . لكنهم خالفوا فسلبهم الله النصر . وهكذا يتأكد لهم أن النصر من عند الله العزيز الذى لا يغلب . وقال البخارى عن البراء بن عازب قال : لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبى صلى الله عليه وسلم جيشا من

الرماة ، وأمّر عليهم « عبد الله بن جبير » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « لاتبرحوا وإن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » .(١)

ونلحظ أن المدد بالملائكة ورد مرة بألف ، ومرة بثلاثة آلاف فى قول الحق سبحانه

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فإن لم يكفكم ثلاثة آلاف سيزيد الله العدد ، لذلك يقول المولى عز وجل :

﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن المدد يتناسب مع حال المؤمنين ، ويبين ذلك قوله سبحانه : ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ﴾

فالصبر إذن وحده لا يكفى بل لابد أيضا من تقوى الله ، ولابد كذلك من المصابرة بمغالبة العدو فى الصبر ؛ لذلك يقول المولى تبارك وتعالى فى موقع آخر : ﴿ اصبروا وصابروا ﴾ وذلك لأن العدو قد يملك هو أيضاً ميزة الصبر ؛ لهذا يزيد الله الصابر ، فإن صبر العدو على شىء فاصبر أنت أيها المؤمن أكثر منه .

وقد جعل الله عز وجل الإمداد بالملائكة بشرى لطمأنة القلوب وثقة من أن النصر من عند الله تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

(الآية ١٠ من سورة الأنفال)

(١) رواه البخارى .

وما أن بدأت المعركة حتى بدأ توالى النعم التى سوف تأتى بالنصر، إمداد بالملائكة، بشرى لتطمئن القلوب، وثقة من أن النصر من عند الله العزيز الحكيم.

ثم يأتى التذكير بالدلالة على ذلك فيقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾

والنعاس عبارة عن السِّنة الأولى التى تأخذ الإنسان عندما يحب أن ينام، ويسميها العامة فى مصر « تعسيلة » ويقولون : « فلان معسل » أى أخذته سِنَة النوم، وهى ليست نوماً بل فتور فى الأعصاب يعقبه النوم، وهذا من آيات الله تعالى فى أن يهب الإنسان راحة مؤقتة وليست نوماً. وسبحانه يقول عن ذاته العليا :

﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

أى أنه - جل وعلا - لا يأخذه النومُ الخفيفُ ولا النوم الثقيل. لأنَّ السِّنة هى إلحاح من الجسم فى طلب النوم، ويكون نوماً خفيفاً، وسبحانه وتعالى ليس كمثله شىء فهو عز وجل لا يتجسد أو يتمثل فى شىء، لا السِّنة تأخذه ولا النوم يقاربه، ونلحظ أن الإنسان إذا ما تكلم بجانب من تأخذه السِّنة فهو يصحو وينتبه. أما النائم بعمق فقد لا يصحو.

فالسِّنَة - إذن - هى الداعى الخفيف للراحة. أما النوم فهو الداعى الثقيل. وهنا أنزل الله عليهم النعاس بمثابة مقدمة للنوم ليستريحوا قليلاً. ونعلم أن النوم آية من آيات الله عز وجل فى كونه؛ لأن الجسم حين يعبر عن نفسه بالحركة والطاقة ويأكل الغذاء ويشرب الماء ويتنفس الهواء، كل ذلك يتحول إلى طاقة ثم إلى وقود للحركة.

وهذه الطاقة تتكون بالتفاعل بين العناصر المختلفة، من تمثيل للغذاء وتحويل الطعام إلى نوعيات مختلفة لتغذية كل خلية من خلايا الجسم بما يناسبها، ثم استخلاص « الأوكسجين » عبر التنفس وطرد ثانى أكسيد الكربون، وعشرات الآلاف من التفاعلات الكيميائية لا توجد بها فضلات لتخرج، وهى تختلف عن التفاعلات الأخرى التى تخرج منها الفضلات من أحد السبيلين، أو من صماخ الأذن أو غير ذلك.

ومثل هذه الفضلات إنما تنتج من الاحتراقات التى نقول عنها: « العادم » فى الآلات الميكانيكية. والعادم هو نتيجة الاحتراق وهى غازات تنفصل لتسير الحركة. وفى الإنسان نجد العادم يتمثل فى الغائط، وما خرج من صماخ الأذن، و « عماص العين »، والعرق، كلها عوادم. لكنْ هناك لون من تركيبة هذه التفاعلات يُمثل لإيجاد الطاقة وليس له عادم.

والوسيلة الأساسية لاستعادة التوازن الكيميائى المناسب للإنسان هى أن نريح الجسم، وتتفاعل مواد الجسم مع نفسها ويعود طبيعياً. وهذا لا يحدث إلا بالنوم. ولذلك نجد الإنسان حين يسهر كثيراً ويذهب إلى النوم يشعر برجليه وقد «خدلت» أو كما يقال: «تملت». وهذا نتيجة عجز مواد الجسم عن التفاعل الذى تحتاجه نتيجة اليقظة، وهذه كلها مسائل لا إرادية. بدليل أن الإنسان يرغب أحياناً فى أن ينام، ويتحايل أحيانا على النوم فلا يأتيه؛ لأن النوم من

العمليات المختصة بالحق سبحانه وتعالى، وهو آية من آيات الله فى هذا الكون، ومن ضمن الآيات العجيبة. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الروم)

وحين حاول العلماء الباحثون أن يفسروا ظاهرة النوم، وضعوا عشرات النظريات، وآخر التجارب التى أجريت أنهم أحضروا إنسانا وعلقوه كالرافعة من وسطه، وكأنه عصا مرفوعة من وسطهابتوازن، وجعلوا كل نصف من النصفين متساوياً فى الوزن، وحين جاء النوم لهذا الإنسان محل التجربة وجدوا أن جهة من النصفين مالت، وكأن ثقلاً ما جاءها من النصف الآخر فزادت كتلتها، وهذا آخر ما درسوه فى النوم، هذه التجربة أثبتت أن النوم عجيبة من العجائب التى تستحق أن يقول الحق تبارك وتعالى عنها : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ .

وانظر إلى كلمة « والنهار » هذه تر فيها الرصيد الاحتياطى الموجود فى آية النوم؛ لأنه سبحانه وتعالى يقول : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل ﴾ .

وفى هذا القول رصيد احتياطى لمن جاء له ظرف من الظروف ولم ينم بالليل، فيعوض هذا الأمر وينام بالنهار، ومن حكمة الله تعالى أنه ذيل هذه الآية بقوله عز وجل : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾.

وهذا بسبب أن النوم يعطل كل طاقات الجسم، فعندما ينام الإنسان لا يقدر جسمه على أن يتحرك التحرك الإرادى، إلا السمع فهو باق فى وظيفته؛ لأن

به الاستدعاء، وإنَّ العين - مثلاً - لا ترى أثناء النوم، إنما الأذن تسمع ولا تتخلى عن السماع أبداً؛ لأن بالأذن يكون الاستدعاء، فإذا ما نادى الأب ابنه وهو نائم فهو يسمع النداء. لذلك قلنا سابقاً: إنَّ الحق سبحانه وتعالى حينما أراد أن ينيم أهل الكهف ثلثمائة سنة وازدادوا تسْعا، قال تعالى:

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لأنه لو لم يضرب على آذان أهل الكهف لظل السمع باقياً، فإذا ظل السمع، أهاجته الأعاصير، وعواء الذئاب، وزئير الأسود، ولما استطاعوا النوم طيلة هذه المدة.

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنفال)

وقد يتبادر إلى الأذهان سؤال هو:

وهل هناك نعاس غير أمنة؟ والجواب نعم؛ لأنه مجرد الراحة من تعب لتنشط بعدها، هذا لنفهم أن «أمنة» جاءت لمهمة هى تهدئة أعماق المؤمنين فى المهيجات المحيطة، فهذا عدو كثير العدد، وهم بلا عتاد؛ لذلك شاء الحق تبارك وتعالى ألا يضيع منهم الطاقة اللازمة للمواجهة، ولا تتبدد هذه الطاقة فى الفكر؛ لذلك جعل نعاسهم نعاساً مخصوصاً يغلبهم وهو «نعاس أمنة»، وجعل المولى عز وجل من هذا النعاس آية، حيث جاءهم كلهم جميعا، وهذه بمفردها آية من آياته سبحانه وتعالى ولو غلبهم النوم العميق لمال عليهم الأعداء مَيْلَة واحدة، ولكنهم أخذوا شيئاً من الراحة التى فيها شئ من

اليقظة . ﴿ إذ يُغَشِّيكم النعاسَ أمنةً ﴾.

وهنا النعاس مفعول به ، وهو أمنة من الله ، وسبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة آل عمران)

هنا فى آية الأنفال نعاس وأمنة ، وهناك فى آية آل عمران أمنة ونعاس ؛ لأن الحالتين مختلفتان - فتوضح آية آل عمران أن النعاس قد غشى طائفة واحدة من المقاتلين فى غزوة أحد بعد أن أصابهم الغم فى هذه الغزوة ، وهؤلاء هم المؤمنون الصادقون الملتفون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما فى سورة الأنفال فتبين الآية أن النعاس قد غشى الجيش كله حيث كان الجميع على قلب رجل واحد والإيمان يملأ قلوبهم جميعا ولا يوجد بينهم منافق أو مرتاب فغشيتهم جميعا هذه الأمنة بالنعاس ؛ لأنه يزيل الخوف ، ومن دلائل الأمن والطمأنينة والثقة بنصر الله .

ويقول الحق تبارك وتعالى متابعاً فى ذات الآية :

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنفال)

ومعنى التطهير أن هناك حادثاً يستحق التطهر منه وهم لم يجدوا ماءً ليتطهروا به حيث كان المشركون قد غلبوا المسلمين على الماء فى أول الأمر ، فظمئ المسلمون وانشغلوا بالعطش ، وبالرغبة فى تطهير أجسامهم ، وهذا يدل على أن المؤمن يجب أن يظل نظيفاً ، رغم الوجود فى المعركة التى لو استمر فيها الواحد منهم يوماً أو اثنين دون استحمام ، لما لامه أحد على ذلك ، وجاء

هذا القول ليدل على حرص المؤمن على النظافة إن خرج شئ من الإفرازات والعرق ، أو كان التطهر من رجز الشيطان ؛ لأن الشيطان خيل لهم منامات جنسية ، وأخذ يوسوس قائلا لهم : أنتم تقولون إنكم على حق ، فكيف تصلون وأنتم جنب ؟ وكان مجرد حدوث هذا الأمر لهم جميعاً هو آية أخرى من الآيات . فأغاظ الله الشيطان وأنزل عليهم الماء ليشربوا ويتطهروا .

ويقول المولى سبحانه وتعالى فى ذات الآية : ﴿ وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾

وأراد الحق تبارك وتعالى أن يطمئن المؤمنين فلا تتوزع أو تتشتت مشاعرهم، وما أن نزل المطر حتى حفروا الحفر ليتجمع فيها الماء ، وهكذا حماهم سبحانه وتعالى من نقص الماء ، كما أن نزول المطر على الأرض الرملية نعمة كبرى - من جهة أخرى - حيث يثبت الرمال على الأرض فلا تثير غباراً ، ونعلم أن الإنسان حين يسير على الأرض ، فإن ثقله يدك ما تحته مما يحتمل الدك على قدر وزنه ، فالطفل الصغير حينما يمشي على الرمال ، فأثر سيره يكون بسيطاً ، عكس الرجل الضخم ، وإن قستها بالنسبة لوزن الصبى أو الغلام ، وبوزن الرجل الممتلىء ، تجد أن الأرض قد غاصت بنسبة الكتلة التى سارت عليها ، وحين يسير الناس دون عمل ولا يقصدون غير السير ، يكون الثقل خفيفاً ، أما حين يدخل الرجال الحرب فالأقدام قد تغوص فى الرمال وقد يصير جزءٌ من جسد المقاتل معطلاً عن الحركة ؛ لأن القدم هى التى تحقق التوازن.

إن هذه من حكمة الله تعالى ، ونحن نرى ذلك فى حياتنا ، فنجد أهل الريف يضعون فوق جداول الماء جزع نخلة أو «عرقاً» من الخشب ليسير عليه الإنسان بين الشطين ، وإن فكر السائر فى هذه المسألة قد يقع فى الماء ، لكنه إن ترك رجليه للسير تلقائيا ، فهو يمشى محققاً التوازن ، ومثل هذا الأمر يحدث

في صناعة سلالم البيوت ، إننا نجدها متساوية في ارتفاع درجاتها ليصعد الإنسان صعوداً رتيباً من غير تفكير ، فإذا اختلت درجة واحدة في السلم بأن كان ارتفاعها مختلفا عن بقية الدرجات يختل التوازن ويقع الإنسان ؛ لأن الساق ضبطت نفسها آليا على هذا الوضع.

ولذلك نجد الصعود على السلالم الحلزونية متعباً لأن السلالم الحلزونية فيها جهة واسعة وأخرى ضيقة. وقد يرتبك الإنسان أثناء الصعود ، ولهذه الأسباب نجد الجيوش تكشف طبياً على المجندين ، ولا يختارون إلا الشخص المستوى القدمين لتستقبل أقدامه كل الظروف ويكون قادراً على مواجهة الظروف غير العادية ، ومن عظمة الخالق سبحانه وتعالى أن جعل كل عضو من الأعضاء له مواصفات خاصة .

وسبحانه يذيل هذه الآية بقوله عز وجل : ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾ .

وتثبيت الأقدام من جهة يمثل أمراً معنوياً ، ومن جهة أخرى يكون تثبيت الأقدام «بمعنى أن نزول المطر جعل الأرض ثابتة » ولا تثير الغبار أو الرمال ، وسبحانه هو القائل في مناسبة أخرى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نفهم أن تثبيت الأقدام له ألوان متعددة ، حسّية ومعنوية .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾

والمولى سبحانه وتعالى هنا يبين أنه أوحى إلى الملائكة بالإلهام : أني معكم بالنصر والتأييد ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ .

أي قوُّوا عزائم المؤمنين وثبتوا قلوبهم. أي اجعلوا قلوبهم كأنها مربوطة عليها فلا يخافون أية أغيار من عدوهم ، ويزيد الإيضاح للمؤمنين : إياكم أن تظنوا أن كثرةَ العدَدِ أو قوةَ العُدَدِ هي التي تصنع النصر. بل النصرُ دائماً من عند الله تعالى وسبحانه القائل :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وذلك لأن النسبة بين المؤمنين والكافرين غير متوازنة وتحتاج إلى مدد عال من الله تعالى. وقلنا إن السماء تتدخل إذا كان الأمر فوق أسباب الخلق ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة النمل)

وإن قال قائل : أنا أدعو الله أكثر من مرة ولا يجيبني.. نرد عليه ونقول له : أنت لم تدع دعوة المضطر ، بل دعوت دعوة المترف ، مثلما يدعو ساكن فى شقة بأن يرزقه الله بقصر صغير. أو يدعو من يسير على أقدامه وتحمله سيارة العمل طالباً سيارة خاصة ، أو يدعو من يملك «تليفزيونا» بأن يهبه الله جهاز «فيديو» ، هذه كلها ليست دعوة اضطرار ؛ لأن المضطر هو من فقد أسبابه.

ويتابع الحق القول فى ذات الآية :

﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

وإذا ألقى الله عز وجل الرعب والخوف فى قلوب العدو مهما كان عَدَدُه ومهما كانت عُدَدُه ، فسيترك هذا العدو كل ما معه ويفر من حالة الرعب والفزع ، وقد فعل بعض من الكفار ذلك . وقد امتنّ الله سبحانه وتعالى على المؤمنين بأن أمدهم بالملائكة بشرى واطمئناناً ، وهيأ لهم الماء ، وطهرهم ، وأذهب عنهم رجز الشيطان ، وكل هذه مقدمات المعركة مستوفاة من جانب الحق تبارك وتعالى إمداداً لكم ، وما عليكم أيها المؤمنون سوى أن تُقبلوا على المعركة بعزيمة صادقة ، عزيمة المقاتل الشجاع المحارب الذى له من العقل ما يفكر به ويدبر فى التخطيط ، وفى الكر والفر.

وكانت أدوات القتال قديماً هى السيوف والرماح والنبال ، وكان المقاتل يحتاج رأسه ليخطط به ، ويحتاج يديه وأنامله ليمسك بها السيف ، ولذلك ينبه الحق المؤمنين إلى هاتين النقطتين المؤثرتين فيقول : ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ .

والضرب لما فوق الأعناق هو ضرب الرأس فيفقد القدرة على التفكير ، أو تذهب حياته لينتهي ، وإن بقى على قيد الحياة فسوف يشاهد مصارع زملائه وذلتهم. والضرب منهم فى كل بنان.. أى ضربهم بالسيوف فى أيديهم ؛ لأن الضرب فى الأيدى إنما يجرحها ويجعلها عاجزة عن القتال .

لماذا؟ . يجيب الحق فى الآية التالية :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾

وهنا يوضح الحق سبحانه وتعالى : أن هذا النصر المؤزر للنبى وصحبه والهزيمة للمشركين ؛ لأنهم شاقوا الله ورسوله ، و "شاقوا" من "الشق" ومعناه أنك تقسم الشيء الواحد إلى اثنين. وكان المفروض فى الإنسان منهم أن يستقبل منهج الله الذى نظم له حركته فى هذا الكون ، ولم يكن هناك داع لتبديد الطاقة بالانشقاق إلى جماعتين ؛ جماعة مع الرسول صلى الله عليه وسلم وجماعة مع الكفر والشرك ؛ لأن الطاقة التى كانت معدة لإصلاح أمر الإنسان والكون للخلافة ؛ إنما يتبدد جزء منها فى الحروب بين الحق والباطل ، ولو توقفت الحروب لصارت الطاقة الإنسانية كلها موجهة للإصلاح والارتقاء والنهوض وتحقيق الخير لبنى الإنسان ، لكنهم شاقوا الله ورسوله ، فجعلوا أنفسهم فى جانب يواجه جانب المؤمنين بالله والرسول ؛ لذلك استحقوا عذاب الله وعقابه ، وبسبب أنهم شاقوا الله ورسوله ، عليهم أن يتحملوا العقاب الشديد من الله ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الأنفال)

وهذه قضية عامة، وسنة من الله فى كونه تشمل هؤلاء الذين شاقوا الله ورسوله من بدء الرسالة، وإلى قيام الساعة.

ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾

وذلكم إشارة للأمر الذى حدث فى موقعة بدر من ضرب المؤمنين للكافرين فوق الأعناق، وضرب كل بنان كافر، وإن ربنا شديد العقاب، وهذا الأمر كان يجب أن يذوقه الكافرون. والذوق هو الإحساس بالمطعوم شراباً كان أو طعاماً، إلا أنه تعدى كل محسّ به ولو لم يكن مطعوماً أومشروبا ويقول ربنا عز وجل:

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

أى ذق الإهانة والمذلة لا مما يُطعم أو مما يُشرب، ولكن بالإحساس؛ لأن ذوق الطعام هو الحاسة الظاهرة فى الإنسان؛ قد يجده بالذوق حريفاً، أو حلواً، أو خشناً أو ناعماً إلى غير ذلك. وها هو ذا الحق يضرب لنا المثل على تعميم شئ: فيقول عز وجل:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة النحل)

والجوع سلب الطعام، فكيف تكون إذاقة الجوع؟ الجوع ليس مما يذاق، ولا

اللباس مما يذاق ، ومن قول الحق تبارك وتعالى نفهم أن الإذاقة هى الإحساس الشديد بالمطعوم ، واللباس - كما نعلم - يعم البدن ، فكأن الإذاقة تتعدى إلى كل البدن ، فالأنامل تذوق ، والرجل تذوق ، والصدر يذوق ، والرقبة تذوق ؛ وكأن الجوع قد صار محيطاً بالإنسان كله. وهنا يقول المولى سبحانه وتعالى : ﴿ذلكم فذوقوه﴾.

والذوق غير البلع والشبع ، ونرى ذلك فى عالمنا السِّلعى والتجارى ؛ فساعة تشترى - على سبيل المثال - جوافة ، أو بلحاً أو تيناً ، يقول لك البائع : إنها فاكهة حلوة ، ذق منها ، ولا يقول لك كل منها واشبع ، إنه يطلب منك أن تجرب طعم الفاكهة فقط ثم تشترى لتأكل بعد ذلك حسب رغبتك وطاقتك. وما نراه فى الدنيا هو مجرد ذوق ينطبق عليه المثل الريفى " على لسانى ولا تنسانى " ، والعذاب الذى رآه الكفار على أيدى المؤمنين مجرد ذوق هيّن جداً بالنسبة لما سوف يرونه فى الآخرة من العقاب الشديد والعذاب الأليم ، وسيأتى الشبع من العذاب فى الآخرة ، لماذا؟ ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾.

وهذا اللون من إذاقة الذل والإهانة فى الدنيا لهؤلاء الكفار المعاندين ، مجرد نموذج بسيط لشدة عقاب الله على الكفر ، وفى يوم القيامة يطبق عليهم القانون الواضح فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وأن للكافرين عذاب النار ﴾.

إذن فالهزيمة لمعسكر الكفر والذلة هى مجرد نموذج ذوق هين لما سوف يحدث لهم يوم القيامة من العذاب الأليم والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الطور)

وعذاب الآخرة سيكون مهولاً، و« العذاب » هو إيلام الحس، إذا أحببت أن تديم ألمه، فأبق فيه آلة الإحساس بالألم، ولذلك تجد الحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن سليمان والهدهد يقول:

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة النمل)

كأن الذبح ينهى العذاب، بدليل أنّ مقابل العذاب فى هذا الموقف هو الذبح.

وماذا عن عذاب النار ؟. إن النار المعروفة فى حياتنا تحرق أى شيء تدخله فيها، لكنّ نار الآخرة تختلف اختلافا كبيرا لأن الحق هو القائل:

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النساء)

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾

ونعلم أن نداء الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين بقوله: ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾، إما أن يكون بعدها أمر بمتعلق الإيمان ومطلوبه، وإما أن يكون بعدها الإيمان نفسه، ومثال ذلك قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة النساء)

وبعضهم يقول : كيف ينادى مؤمنين ثم يقول لهم : « آمنوا » ؟ ، وهؤلاء المستفهمون لمْ يلتفتوا إلى أن الحق حين يكلم المؤمنين يعلم أنهم مؤمنون بالفعل ، ولكن الأغيار فى الاختيار قد تدعوهم إلى أن يتراخى البعض منهم عن مطلوبات الإيمان. و « آمنوا » الثانية معناها : أنشئوا دائما إيماناً جديداً أى مستمراً يتصل بالإيمان الحاضر والإيمان المستقبل ، ليدوم لكم الإيمان.

فإذا كان ما بعد ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ أمراً بمطلوب الإيمان ، من حكم شرعى ، أو عظة أخلاقية. يكون أمرها واقعاً ، والمعنى : يا من آمنتم بى إلهاً قادراً حكيماً ، ثقوا فى كل ما آمركم به لأنى لا آمركم بشىء فيه مصلحة لى ؛ لأن صفات الكمال لى أزلية ، فخلقى لكم لم ينشىء صفة كمال ، فإن كلفتكم بشىء ، فتكليفى لكم يعود عليكم بالنفع والمصلحة لكم ، وضربنا المثل - ولله المثل الأعلى منزّه عن كل مثل - أنت تذهب إلى الطبيب بعد أن تتشاور مع أهلك وزملائك وتكون واثقاً بأن هذا هو الطبيب الذى ينفع فى هذه الحالة التى تشكو منها ، وساعة تذهب إليه يشخص لك المرض ويكتب لك الدواء ، وسواء استخدمت الدواء أم لم تستخدمه فأنت حر وأثر ذلك يعود عليك وعدم استعمالك الدواء لن يضر الطبيب شيئاً ، بل أنت الذى تضر نفسك ، كذلك منهج الله الذى جعله لصلاحية حركة الحياة. إن اتبعته وطبقته تنفع نفسك ، وإن تركته فلم تطبقه فسوف تضر نفسك ، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

إذن فالاختيار لك والله سبحانه وتعالى قد خلقك ، وخلق الكون الذى يخدمك من قبل أن توجد ، وأنت طارىء على هذا الكون ، طارىء على الشمس وعلى القمر ، وعلى الأرض ، وعلى الجبال ، وعلى الماء وعلى أى

شيء في هذا الوجود. والذي خلق ما سبقك لابد أن تكون له صفات الكمال المطلق. فهو سبحانه وتعالى قد خلق كل شيء بالحكمة والنظام، ومادامت له سبحانه وتعالى صفات الكمال المطلق المستوعبة، فهو لا يطلب منك بالتكاليف أن تنشيء له صفة كمال جديدة، وهو غني عنك. فإذا اقتنعت بالإيمان فلمصلحتك أنت، ولم يكلفك إلا بالأحكام التي تصلح من حالك. وحيثية كل حكم هو تصديره بـ ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾.

إياك أن تبحث عن علة في الحكم؛ لأنك لو ذهبت إلى الحكم لعلته، لاشتركت مع غير المؤمنين، فالمؤمن - مثلا - حين سمع الأمر باجتناب الخمر، امتثل للحكم لأنه صادر من الله، من بعد ذلك عرف غير المؤمنين - بالتحليل العلمي - أن الخمر ضارة فامتنعوا عنها، فهل امتناعهم هو امتناع إيماني ؟ لا .

إذن فإن المؤمن يأخذ الأمر من الله عز وجل لا لعلة الأمر بل لمجرد أنه قد صدر من الله؛ لذلك يمتثل للأمر وينفذه.. فالمسلم يمتثل لأوامر الله ويؤدي العمل الصالح دون بحث أو تساؤل عن علته، فحين يقال - على سبيل المثال - إن من فوائد الصيام أن يذوق الغني ألم الجوع، ويعطف على الفقير، حين أسمع من يقول ذلك أقول له : قولك صحيح لأن فيه لمسة من فهم، لكن ماذا عن صوم الفقير الذي ليس عنده ما يعطيه لغيره، ألا يصوم أيضاً ؟.

إن المؤمن يصوم لأن الأمر جاء من الله بالصيام. ومعظم أحكام الله تأتي مسبوقة بقوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾، أي : يا من آمنتم بي إلهاً أقبلوا عليّ، فإنكم إن بحثتم عن العلة، ثم نفذتم الحكم لعلته فأنتم غير مؤمنين بالإله الآمر والمشرع، لكنكم مؤمنون بعلة المأمور به، والله يريدك أن ترضخ له فقط، ولذلك يأمرك بأوامر وينهاك بنواه، فأنت - مثلا - حين تحج بيت الله الحرام، تسلم على الحجر الأسود بأمر من الله، وقد تتيح لك الظروف أن تقبّل هذا

الحجر كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت فى كل ذلك لا ترضخ للحجر. بل للآمر الأعلى الذى بعث محمداً بحرب على الأصنام وعلى الأحجار، وأنت تتبع رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بمنتهى التسليم والإيمان، وتذهب بعد ذلك لترجم الأحجار التى هى رمز إبليس. وتفعل ذلك تسليماً لأوامر الله تعالى التى بلغتك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ ﴾

(سورة الأنفال)

فمادمت قد آمنت بالإله، لابد أن تدافع عن منهج الإله؛ لأن هذا أيضاً لمصلحتك؛ لأنك بإيمانك بالله أيها المؤمن ينتفع المجتمع كله بخيرك، ولن يأمرك سبحانه إلا بالخير، فلن تسرق، ولن تزنى، ولن تشرب خمراً، ولن تعربد فى الناس، ولن ترتشى، وبكل ذلك السلوك ينتفع المجتمع؛ لأن المجتمع يضار حين يوجد به فريق غير مهتد. وأنت حين تقاتل لتفرض الكلمة الإيمانية على هؤلاء، فهذا يعود إلى مصلحتك، ولذلك فإن اتصافك بالإيمان لا يتحقق إلا إن عديته لغيرك، ومن حبك لنفسك، أن تعدى الإيمان بالقيم التى عندك إلى غيرك لتنتفع أنت بسلوك من يؤمن، وينتفع غيرك بسلوكك معه، ومن مصلحتك أن يؤمن الجميع.

وحين يكلفك الحق تبارك وتعالى بالجهاد فى سبيل الله فأنت تفعل ذلك لصالحك.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأنفال)

وزحفاً مصدر زَحَف، والزحْف في الأصل هو الانتقال من مكان إلى مكان آخر بالنصف الأعلى من الجسم. وتقول: « الولد زحف » أي تحرك من مكانه بنقل يديه وشد بذلك بقية جسمه. كما نقول: « حبا ». أي استعمل الوركين والركبتين ليتحرك بجسده على الأرض، ثم نقول: « مشى » أي وقف على قدميه وسار، فتلك إذن مراحل تبدأ من زَحْف ثم حَبْو ثم مَشْي، والطفل يبدأ حركته الأولى بالزحف، بعد أن يتمكن من السيطرة على رأسه، ويمتلك القدرة على تحريكها بإرادته، ويقوى نصفه الأعلى، فيقعد، ثم يزحف، وبعد ذلك تقوى فخذاه فيحبو، ومن بعد ذلك تقوى الساقان فيمشي.

إذن قوة الطفل تبدأ من أعلى.

ولكن ما حكاية « زحفا » هنا في هذه الآية الكريمة ؟ ولماذا لم يقل هَرْولوا إلى القتال ؟. ونقول : إن الزحف هو انتقال كتلة لا ترى الناقل فيها، فمن يراها يظن أن الكتلة كلها تتحرك.

وكأن الحق تعالى يقصد : أريد منكم أن تتحركوا إلى الحرب كتلة واحدة متلاصقين تماماً فيظهر الأمر وكأنكم تزحفون . وزحفاً أصلها زاحفين، وقد عدل سبحانه وتعالى عن اسم الفاعل وجاء بالمصدر، مثلما نقول عن إنسان عادل : إنه إنسان عدل، أي أن عدله مجسم. ولذلك نجد الشاعر يقول عن الجيش الزاحف :

خميس (١) بِشَرْقِ الأرضِ والغربِ زحفُه

وفي أذنِ الجـــوزاءِ منه زمـــازم (٢)

---

(١) وسمى الجيش بذلك؛ لأنه خمس فرق : المقدمة، والقلب، والميمنة، والميسرة، والساق.
(٢) زمازم : جمع زمزمة؛ وهو صوت الرعد.

والخميس هو الجيش الجرار ، ويريد الشاعر أن يصوّر الزحف كأنه كتلة واحدة متماسكة ومترابطة، بحيث لا تستطيع أن تميز حركة جندى من حركة جندى آخر ، حتى ليخيّل إليك أن الكتلة كلها تسير معاً. ومن يريد أن يتأكد من ذلك ندعو الله أن يكتب له الحج ويصعد إلى الدور الثانى من الحرم المكى الشريف ويرى الطائفين، ويجدهم ملتحمين جميعاً كأنهم كتلة واحدة تسير، ولذلك سمّوها «السيل».

و« سالت بأعناق المطى الأباطح »

مَثلُهم مثل السيل فى تدفقه لا تفرق فيه نقطة عن أخرى.

والحق تبارك وتعالى يوضح لنا هنا أن لقاء الكفار يجب أن يكون زحفاً أى كتلة واحدة متماسكة، فيصيب المشهد الكافرين بالرعب حين يرون هذه الكتلة الضخمة التى لا يفرق أحد بين أعضائها، وهكذا تكون المواجهة الحقيقية.

ويواصل الحق سبحانه وتعالى التنبيه فيقول:

﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأنفال)

أى لا تعطوهم ظهوركم، وهو سبحانه وتعالى فى آية أخرى يقول :

﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾

(من الآية ٢١ سورة المائدة)

ويريد الله أن يعطى صورة بشعة فى أذن القوم؛ لأن « الأدبار» جمع « دبر » والدبر مفهوم أنه الخلف ويقابله القُبُل، وهذا تحذير لك من أن تمكن عدوك من ظهرك أى دبرك، لأن هذا أمر مستهجن، ولذلك نجد الإمام عليا - كرّم الله

وجهه - يرد على من قالوا له إن درعك له صدار وليس له ظهار، أى مغطى من الصدر، وليس له ظهر. وهنا يقول الإمام على رضى الله عنه : « ثكلتنى أمى إن مكّنت عدوى من ظهرى »، وكأن شهامة وشجاعة الإمام تحمله على أنه يترك ظهره من غير وقاية.

وفى قول الحق جل وعلا « فلا تولوهم الأدبار » تحذير من الفرار من مواجهة العدو.

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة لم يرتب الغضب منه إلا على من يولى الدبر هَرباً وفراراً من لقاء الأعداء. أما الذى يولى الدبر احتيالاً ولإيهام العدو بأنه ينسحب وفى ذات اللحظة يعاود الكرّة على العدو مطوّقاً له، فهذا هو المقاتل الحق والصادق فى إيمانه الذى يمكر بالعدو. وكذلك من يولى الدبر متحيزاً إلى فئة مؤمنة ليعاود معها الهجوم على الأعداء حتى لا تضيع منه حياته بلا ثمن، فهذا أيضاً من أعمل فكره ليُنزل بالعدو الخسارة ؛ لأن المؤمن يحرص دائما على أن يكون موته بمقابل، فإذا ما وعده الله بالجنة. ألا يقاتل هو ليصيب الأعداء بالهزيمة ؟. وكان ثمن المؤمن من قبل عشرة كافرين، بمعنى أن الله تعالى منح كل مؤمن قوةً تغلب عشرة، مصداقاً لقوله عز وجل :